

أعجاب

بقلم
الأديب البليغ مصطفى لطفي المنفلوطي
المتوفى سنة (١٣٤٣هـ) رحمه الله

مكتبة الهداية

طبعة دارالمطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

مكتبة الهداية

صرب: ٥٣٩٥ - ١٣

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذهب فلان إلى أوروبا وما نُنكرُ مِنْ أمرِهِ شيئاً،
فلبثَ فيها بضع سنينَ، ثُمَّ عادَ وما بقي مما كُنَّا نَعْرِفُهُ
منهُ شيئاً.

ذهب بوجهٍ كوجهِ العذراءِ ليلةَ عُرْسِهَا، وعادَ
بوجهٍ كوجهِ الصَّخْرَةِ المَلْسَاءِ تحتَ اللَّيْلَةِ المَاطِرَةِ.

وَذَهَبَ بِقَلْبٍ نَقِيٍّ طَاهِرٍ يَأْنَسُ بِالْعَفْوِ وَيَسْتَرِيحُ
إِلَى العُذْرِ، وعادَ بِقَلْبٍ مُلَفَّفٍ مَدْخُولٍ لَا يُفَارِقُهُ
السَّخَطُ عَلَى الأَرْضِ وَسَاكِنِهَا، والنَّقْمَةُ عَلَى السَّمَاءِ
وخالِقِهَا.

وذهب بنفسٍ غَضَّةٍ خَاشِعَةٍ تَرى كُلَّ نَفْسٍ
فَوْقَهَا، وعادَ بنفسٍ ذَهَابَةٍ نَزَاعَةٍ لَا تَرى شيئاً فَوْقَهَا،
وَلَا تُتَلَقَى نَظْرَةً وَاحِدَةً عَلَى مَا تَحْتَهَا.

وذهب برأسٍ مَمْلُوءٍ حِكْمَةً وَرَأْيًا، وَعَادَ
بِرَأْسِ التَّمثالِ المَثقُوبِ لا يَمْلُؤُهُ إِلَّا الهِواءُ المُتَرَدِّدُ.

وذهب وَمَا على وَجْهِ الأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ
دِينِهِ وَوَطَنِهِ، وَعَادَ وَمَا على وَجْهِهَا أَصْغَرُ فِي عَيْنِهِ
مِنْهُمَا! .

وكنْتُ أرى أَنَّ هذِهِ الصُّورَ الغَرِيبَةَ الَّتِي يَتَرَأَى
فِيهَا هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءُ مِنَ الفِتْيَانِ العائِدِينَ مِنْ تِلْكَ
الدِّيَارِ إِلَى أوطانِهِمْ إِنَّمَا هِيَ أَصْباغٌ مُفْرَغَةٌ على
أجسامِهِمْ إفْرَاغًا لا تَلْبِثُ أَنْ تَطْلُعَ عَلَيْهَا شَمْسُ
المَشْرِقِ فَتَمُحُوها، كَأَنَّ لَمْ تُكُنْ، وَأَنَّ مَكَانَ المَدِينَةِ
الغَرِيبَةِ مِنْ نَفوسِهِمْ مَكَانُ الوَجْهِ مِنَ المَرآةِ؛ إِذا
انْحَرَفَ عَنها زالَ خيالُهُ مِنْها.

فلم أَشَأْ أَنْ أَفارقَ ذلِكَ الصِّديقِ، وَلَبِستُهُ على
عِلاتِهِ وفاءً بِعَهْدِهِ السَّابِقِ، وَرَجاءً لِغَدِهِ المُنْتَظَرِ
مُحْتَمِلًا فِي سَبيلِ ذلِكَ مِنْ حُمَقِهِ وَوَسْواسِهِ وَفَسادِ

تَصَوُّرَاتِهِ، وَغَرَابَةِ أَطْوَارِهِ، مَا لَا طَاقَةَ لِمِثْلِي بِاحْتِمَالِ
مِثْلِهِ .

حَتَّى جَاءَنِي ذَاتَ لَيْلَةٍ بِدَاهِيَةِ الدَّوَاهِيِ ،
وَمُصِيبَةِ الْمَصَائِبِ ، فَكَانَتْ آخِرَ عَهْدِي بِهِ !! .

دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَرَأَيْتُهُ وَاجِمًا مُكْتَبِبًا ، فَحَيَّيْتُهُ ،
فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِالتَّحِيَّةِ إِيمَاءً فَسَأَلْتُهُ : مَا بِالْه؟ .

فَقَالَ : مَا زِلْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ فِي
عَنَاءٍ لَا أَعْرِفُ السَّبِيلَ إِلَى الْخِلَاصِ مِنْهُ ، وَلَا أَدْرِي
مَصِيرَ أَمْرِي فِيهِ .

قُلْتُ : وَأَيُّ امْرَأَةٍ تَرِيدُ؟ .

قَالَ : تِلْكَ الَّتِي يُسَمِّيهَا النَّاسُ زَوْجَتِي ،
وَأَسَمِّيهَا الصَّخْرَةَ الْعَاتِيَةَ الْقَائِمَةَ فِي طَرِيقِ مَطَالِبِي
وَأَمَالِي .

قُلْتُ : إِنَّكَ كَثِيرُ الْأَمَالِ يَا سَيِّدِي ، فَعَنْ أَيِّ
أَمَالِكَ تُحَدِّثُ؟ .

قال: ليس لي في الحياة إلا أمل واحد، وهو
أن أغمض عيني ثم أفتحها فلا أرى برقعا^(١) على
وجه امرأة في هذا البلد.

قلت: ذلك ما لا تملكه، ولا رأي لك فيه.

قال: إن كثيراً من الناس يرون في الحجاب
رأبي، ويتمنون في أمره ما أتمنى، ولا يحول بينهم
وبين تمزيقه عن وجه نسايتهم وإبرازهن إلى الرجال
يجالسهن كما يجلس بعضهن إلى بعض إلا العجز
والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي
كلما حاول الإقدام على أمر جديد، فرأيت أن أكون
أول هادم لهذا البناء العادي^(٢) القديم الذي وقف
سداً دون سعادة الأمة وارتقائها ذهراً طويلاً، وأن يتم
على يدي من ذلك ما لم يتم على يد أحد غيري من

(١) هو الغطاء الذي تستر المرأة به وجهها .

(٢) العادي: كالقديم، نسبة إلى قبيلة عاد.

دُعَاةِ الْحَرِيَّةِ وَأَشْيَاعِهَا، فَعَرَضْتُ الْأَمْرَ عَلَى زَوْجَتِي
فَأَكْبَرْتُهُ وَأَعْظَمْتُهُ وَخُيِّلَ إِلَيْهَا أَنَّي جِئْتُهَا بِنَكْبَةٍ مِنْ
نَكَبَاتِ الدَّهْرِ أَوْ رَزِيئَةٍ مِنْ رَزَايَاهُ، وَزَعَمَتْ أَنَّهَا إِنْ
بَرَزَتْ إِلَى الرِّجَالِ فَإِنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَبْرُزَ إِلَى
النِّسَاءِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ حَيَاءً مِنْهُنَّ وَخَجَلًا، وَلَا خَجَلَ
هُنَاكَ وَلَا حَيَاءً وَلَكِنَّهُ الْمَوْتُ وَالْجُمُودُ وَالذُّلُّ الَّذِي
ضَرَبَهُ اللَّهُ عَلَى هَوَالِيَاءِ النِّسَاءِ فِي هَذَا الْبَلَدِ (١) أَنْ
يَعِشْنَ فِي قُبُورٍ مُظْلِمَةٍ مِنْ خُدُورِهِنَّ حَتَّى يَأْتِيَهُنَّ
الْمَوْتُ فَيَنْتَقِلْنَ مِنْ مَقْبَرَةِ الدُّنْيَا إِلَى مَقْبَرَةِ الْآخِرَى،
فَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَبْلُغَ أَمْنِيَّتِي، وَأَنْ أُعَالِجَ هَذَا الرَّأْسَ
الْقَاسِيَ الْمُتَحَجَّرَ عِلَاجًا يَنْتَهِي بِإِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ،
إِمَّا بِكَسْرِهِ أَوْ بِشِفَائِهِ!

فَوَرَدَ عَلَيَّ مِنْ حَدِيثِهِ مَا مَلَأَ نَفْسِي هَمًّا وَحُزْنًا،
وَنظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ الرَّاحِمِ الرَّائِي، وَقُلْتُ لَهُ: أَعَالِمٌ
أَنْتَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ مَا تَقُولُ.

(٢) يعني مصر، كبرت كلمة هو قائلها.

قال: نعم، أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها وإقعة من نفسك ونفوس الناس جميعاً حيث وقعت.

قلت: هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت برهة من الزمان في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم، فهل تذكر أن نفسك حدثت يوماً من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك فملت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكة؟.

قال: ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد؟.

أريد أن أقول لك: إنني أخاف على عرضك أن يلتم به من الرجال ما ألم بأعراض الرجال منك!.

قال: إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها في حصن حصين لا تمتد إليه الأعناق.

فَتَدَاخَلَنِي مَا لَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي مَعَهُ وَقُلْتُ :

تلك هي الخُدعةُ التي يَخْدَعُكُمْ بها الشَّيْطَانُ
أَيُّهَا الضُّعَفَاءُ، وَالثُّلَمَةُ الَّتِي يَعْتُرِبُهَا فِي زَوَايَارِ وَوَسِيكُمْ
فَيَنْحَدِرُ مِنْهَا إِلَى عُقُولِكُمْ وَمَدَارِكِكُمْ فَيُفْسِدُهَا
عَلَيْكُمْ، فَالشَّرْفُ كَلِمَةٌ لَا وَجُودَ لَهَا إِلَّا فِي قَوَامِيسِ
اللُّغَةِ وَمَعَاجِمِهَا، فَإِنْ أَرَدْنَا أَنْ نَفْتَشَ عَنْهَا فِي قُلُوبِ
النَّاسِ وَأَفْتِدَتِهِمْ فَإِنَّا لَا نَجِدُهَا، وَالنَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ
كَالغَدِيرِ الرَّكَدِ لَا يَزَالُ صَافِيًا رَائِقًا حَتَّى يَسْقُطَ فِيهِ
حَجَرٌ، فَإِذَا هُوَ مُسْتَنْقَعٌ كَدِرٌ.

وَالْعِفَّةُ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ النَّفْسِ، لَا جَوْهَرٌ مِنْ
جَوَاهِرِهَا، وَقَلَّمَا تَثَبَّتْ الْأَلْوَانُ عَلَى أَشْعَةِ الشَّمْسِ
الْمُتَسَاقِطَةِ.

قال: أتكرُّ وجودَ العِفَّةِ بين الناسِ؟ .

قلتُ: لا أُنْكِرُهَا لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ بَيْنَ

البُلهِ والضعفاءِ والمتعمِّلينَ ، ولكنِّي أنكرُ وجودَها
عندَ الرَّجُلِ القادرِ المُختَلِبِ ، والمَراةِ الحاذِقَةِ
المُترَفِّقَةِ إِذَا سَقَطَ مِنْ بَينَهما الحِجابُ وَخَلا وَجَهُ
كُلِّ مِنْهُما لِصاحبِهِ! .

في أَيِّ جَوٍّ مِنْ أَجواءِ هَذا البَلَدِ تُريدونَ أَنْ
تَبْرُزَ نِساءُكُمْ لِرجالِكُمْ؟! .

أفي جَوِّ المُتعلِّمينَ وفيهِمَ مَنْ سُئِلَ مَرَّةً: لِمَ
لَمْ يَتَزَوَّجْ؟ أَجابَ: نِساءُ الأُمَّةِ جَمِيعاً نِساءي!!! .

أَمَ في جَوِّ الطَلَبَةِ وفيهِمَ مَنْ يَتَوَارَى عَن أَعيُنِ
خِلالِنا وَأَترابِهِ حَياءً وَحِجلاً إِنْ خَلَّتْ مِحْفَظَتُهُ يَوماً مِنْ
الأَيامِ مِنْ صَورِ عَشيقاتِهِ وَخِليلاتِهِ أَو أَقفَرَتْ مِنْ رِساءِلِ
الحُبِّ وَالغِرامِ؟! .

أَمَ في جَوِّ الرِّعاعِ وَالغَوغاءِ وَكَثيرٍ مِنْهُمُ يَدْخُلُ
البَيتَ خادِماً دَليلاً ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ صِهراً كَريماً؟! .

وَبَعْدُ:

فَمَا هَذَا الْوَلَعُ بِقِصَّةِ الْمَرْأَةِ، وَالتَّمَطُّقُ (١)
بِحَدِيثِهَا، وَالْقِيَامُ وَالْقُعُودُ بِأَمْرِهَا، وَأَمْرٌ حِجَابِهَا
وَسُفُورِهَا، وَحُرِّيَّتِهَا وَأَسْرِهَا؟ .

كَأَنَّمَا قَدْ قُفِّمْتُمْ بِكُلِّ حَقٍّ وَاجِبٍ لِلْأُمَّةِ عَلَيْكُمْ
فِي أَنْفُسِكُمْ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تُفِيضُوا مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ
عَلَى غَيْرِكُمْ! .

هَذِّبُوا رِجَالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُهَذِّبُوا نِسَاءَكُمْ، فَإِنْ
عَجَزْتُمْ عَنِ الرِّجَالِ فَأَنْتُمْ عَنِ النِّسَاءِ أَعْجَزُ .

أَبْوَابُ الْفَخْرِ أَمَامَكُمْ كَثِيرَةٌ، فَاطْرُقُوا أَيَّهَا
شِئْتُمْ، وَدَعُوا هَذَا الْبَابَ مُوَصِّدًا فَإِنَّكُمْ إِنْ فَتَحْتُمُوهُ
فَتَحْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَيَلًا عَظِيمًا، وَشَقَاءً طَوِيلًا .

(١) تَمَطَّقُ: صَوَّتَ بِلِسَانِهِ عِنْدَ اسْتِطَابَةِ الطَّعَامِ .

أروني رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يملك هواه بين يدي امرأة يرضاها فأصدق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدي رجلٍ ترضاها؟! .

إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه، وتطلبون عندها ما لا تعرفونه عند أنفسكم .

فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون: أتربحونها من بعدها أم تخسرونها؟ وما أحسبكم إلا خاسرين .

ما شكك المرأة إليكم ظلماً، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا قيدها، وتطلقوها من أسرها، فما دخولكم بينها وبين نفسها؟ . وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها؟! .

إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم،

ومضايقتكم لها، ووقوفكم في وجهها حيثما سارت،
 وأينما حلت، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد
 لها سبيلاً إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق
 ما سجنها أهلها، فأوصدت من دونها بابها، وأسبلت
 أستارها، تبرماً بكم، وفراراً من فضولكم، فواعجباً
 لكم تسجونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها
 تبكونها وتندبون سقاءها!! .

إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم، ولا
 تبكون عليها بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل
 جوها تبرجاً وسفوراً، ويتدفق حريّة واستهتاراً^(١)،
 وتودون بجذع الأنف لوظفرتم هنا بهذا العيش
 الذي خلقتموه هناك! .

لقد كنا وكانت العفة في سقاء^(٢) من الحجاب

(١) استهتر: اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل .

(٢) السقاء: وعاء الماء من جلد السخلة .

مَوْكُوءٍ^(١)، فَمَا زِلْتُمْ بِهِ تَثْقُبُونَ فِي جَوَانِبِهِ كُلَّ يَوْمٍ
 تُقْبَأُ، وَالْعِفَّةُ تَسْلُلُ مِنْهُ قَطْرَةً قَطْرَةً حَتَّى تَقْبِضَ^(٢)
 وَتَضَاعَلَ، ثُمَّ لَمْ يَكْفِكُمْ ذَلِكَ مِنْهُ حَتَّى جِئْتُمْ الْيَوْمَ
 تُرِيدُونَ أَنْ تَحْلُوا وَكَاءَهُ حَتَّى لَا تَبْقَى فِيهِ قَطْرَةٌ
 وَاحِدَةٌ.

عَاشَتِ الْمَرْأَةُ الْمِصْرِيَّةُ حِقْبَةً مِنْ دَهْرِهَا هَادِئَةً
 مُطْمَئِنَّةً فِي بَيْتِهَا، رَاضِيَةً عَنْ نَفْسِهَا وَعَنْ عَيْشِهَا،
 تَرَى السَّعَادَةَ كُلَّ السَّعَادَةِ فِي وَاجِبِ تَوْدِيهِ لِنَفْسِهَا،
 أَوْ وَقْفَةِ تَقْفُهَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا، أَوْ عَطْفَةِ تَعْطِفُهَا عَلَى
 وَلَدِهَا، أَوْ جَلْسَةِ تَجْلِسُهَا إِلَى جَارَتِهَا فَتَبْشُرُهَا ذَاتَ
 نَفْسِهَا، وَتَسْتَبْشُرُهَا سَرِيرَةً قَلْبِهَا، وَتَرَى الشَّرْفَ كُلَّ
 الشَّرْفِ فِي خُضُوعِهَا لِأَبِيهَا، وَائْتِمَارِهَا بِأَمْرِ زَوْجِهَا،
 وَتَزْوُلِهَا عِنْدَ رِضَاهُمَا.

(١) أَوْكَى الْقِرْبَةِ: شَدَّ رَأْسَهَا بِالْوِكَاءِ، وَالْوِكَاءُ: الرِّبَاطُ.

(٢) تَقْبِضُ: يَبْسُ.

وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى
 الغرام، فتحبت زوجها لأنه زوجها، كما تحب ولدها
 لأنه ولدها، فإن رأى النساء غيرها أن الحب أساس
 الزواج، رآته هي أن الزواج أساس الحب، فقلتم لها:
 إن هؤلاء الذين يستبدون بأمرِك من أهلِك ليسوا بأكبر
 منك عقلاً، ولا أفضل رأياً، ولا أقدر على النظر لك
 من نظرك لنفسك، فلا حق لهم في هذا السلطان
 الذي يزعمونه لأنفسهم عليك، فازدرت أباهما،
 وتمردت على زوجها، وأصبح البيت الذي كان
 بالأمس عرساً من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة
 لا تهدأ نارها، ولا يخبو أوارها.

وقلتم لها: لا بد لك أن تختاري زوجك
 بنفسك حتى لا يخذعك أهلِك عن سعادة
 مستقبلك^(١) فاختارت بنفسها أسوأ مما اختار لها

(١) هذا ملحوظ في عرض المسلسلات المتلفزة، فالحذر...
 الحذر.

أهلها فلم يزد عمر سعادتها على يومٍ وليلةٍ ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم .

وقلتم لها: إنَّ الحبَّ أساس الزَّواج، فما زالت تَقلب عَينَها في وُجوه الرِّجالِ مُصعَّدةً مُصوِّبةً حَتَّى شَغَلَهَا الحُبُّ عن الزَّواجِ ! .

وقُلْتُم لها: إنَّ سعادةَ المَرأةِ في حَياتِها أنْ يَكونَ زوجها عَشيَقَها، وما كانت تَعْرِفُ إلاَّ أنَّ الزَّوجَ غيرُ العَشيَقِ، فأَصْبَحَتْ تَطْلُبُ في كُلِّ يَومٍ زَوجاً جَدِيداً يُحْيِي مِنَ لَوَعَةِ الحُبِّ ما أَمَاتَ القَدِيمُ . فلا قَدِيماً اسْتَبَقَتْ ولا جَدِيداً أَفَادَتْ (١) .

وقُلْتُم لها: لا بُدَّ لِكِ أنْ تَتَعَلَّمِي لِتُحَسِنِي تَرْبِيَةَ وَلَدِكِ والقِيَامَ على شُؤونِ بَيْتِكِ، فتَعَلَّمَتْ كلَّ شَيْءٍ إلاَّ تَرْبِيَةَ وَلَدِها والقِيَامَ على شُؤونِ بَيْتِها! .

وقلتم لها: إننا لا نتزوج من النساء إلا من

(١) أفاد: بمعنى استفاد .

نُحِبُّهَا وَنَرْضَاهَا، وَيُلَائِمُ ذَوْقَهَا ذَوْقَنَا، وَشُعُورُهَا
شُعُورَنَا، فَكَانَ لَا بُدَّ لَهَا أَنْ تَعْرِفَ مَوَاقِعَ أَهْوَائِكُمْ،
وَمَسَارِحَ أَنْظَارِكُمْ، لِتَتَجَمَّلَ لَكُمْ بِمَا تُحِبُّونَ،
فَرَأَجَعْتُ فِيهِرَسَ أَعْمَالِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ صَفْحَةً صَفْحَةً
فَلَمْ تَرَ فِيهِ غَيْرَ أَسْمَاءِ الْخَلِيعَاتِ الْمُسْتَهْتِرَاتِ،
وَالضَّاحِكَاتِ اللَّاعِبَاتِ، وَالْإِعْجَابِ بِهِنَّ، وَالشَّاءِ
عَلَى ذَكَائِهِنَّ وَفِطْنَتِهِنَّ، فَتَخَلَّعْتُ وَاسْتَهْتَرْتُ لِتَبْلُغَ
رِضَاكُمْ، وَتَنْزِلَ عِنْدَ مَحَبَّتِكُمْ، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِهَذَا
الثَّوْبِ الرَّقِيقِ الشَّفَافِ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَيْكُمْ عَرْضًا
كَمَا يَعْرِضُ النَّخَاسُ أُمَّتَهُ فِي سُوقِ الرَّقِيقِ فَأَعْرِضْتُمْ
عنها، وَنَبَّوْتُمْ بِهَا.

وَقُلْتُمْ لَهَا: إِنَّا لَا نَنْزُوجُ النِّسَاءَ الْعَاهِرَاتِ،
كَأَنَّكُمْ لَا تُبَالُونَ أَنْ يَكُونَ نِسَاءُ الْأُمَّةِ جَمِيعًا سَاقِطَاتٍ
إِذَا سَلِمَتْ لَكُمْ نَسَاؤُكُمْ، فَرَجَعْتُ أَدْرَاجَهَا خَائِبَةً
مُنْكَسِرَةً، وَقَدْ أَبَاها الْخَلِيعُ، وَتَرَفَّعَ عَنْهَا الْمُحْتَشِمُ،
فَلَمْ تَجِدْ بَيْنَ يَدَيْهَا غَيْرَ بَابِ السَّقُوطِ فَسَقَطَتْ. .

وهكذا انتشرت الريبة في نفوس الأمة
جميعها، وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها،
فتحاجز الفريقان، وأظلم الفضاء بينهما، وأصبحت
البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالاً مترهبين
ونساء عانسات.

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون،
وهذا رثاؤكم لها، وعطفكم عليها!

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة
إلى العلم فليهدبها أبوها أو أخوها، فالتهديب أنفع
لها من العلم^(١)، وإلى اختيار الزوج العادل
الرحيم، فليحسن الآباء الاختيار لبناتهم وليجمل
الأزواج عشرة نسائهم، وإلى النور والهواء تبرز
إليهما، تتمتع فيهما بنعمة الحياة، فليأذن لها

(١) فمهدبة غير متعلمة أنفع لنفسها وللأمة من متعلمة غير
مهدبة، والجمع بين العلم والتهديب أولى.

أَوْلِيَاوَهَا بِذَلِكَ، وَلْيُرَافِقْهَا رَفِيقٌ مِنْهُمْ فِي غَدَوَاتِهَا
وَرَوْحَاتِهَا كَمَا يُرَافِقُ الشَّاةُ رَاعِيهَا خَوْفًا عَلَيْهَا مِنَ
الذُّنَابِ، فَإِنْ عَجَزْنَا عَنْ أَنْ نَأْخُذَ الْآبَاءَ وَالْإِخْوَةَ
وَالْأَزْوَاجَ بِذَلِكَ، فَلْنَنْفُضْ أَيْدِيَنَا مِنَ الْأُمَّةِ جَمِيعِهَا:
نِسَائِهَا وَرِجَالِهَا. فَلَيْسَتْ الْمَرْأَةُ بِأَقْدَرَ عَلَى إِصْلَاحِ
نَفْسِهَا مِنَ الرَّجُلِ عَلَى إِصْلَاحِهَا.

أَعْجَبُ مَا أَعْجَبُ لَهُ مِنْ شُؤْنِكُمْ أَنَّكُمْ
تَعَلَّمْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ أَدْنَى إِلَيَّ
مَدَارِكِكُمْ أَنْ تَعْلَمُوهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ أَنَّ لِكُلِّ
تُرْبَةٍ نَبَاتًا يَنْبُتُ فِيهَا، وَلِكُلِّ نَبَاتٍ زَمَانٌ يَنْمُو فِيهِ.

رَأَيْتُمُ الْعُلَمَاءَ فِي أَوْرُوبَا يَشْتَغِلُونَ بِكَمَالِيَّاتِ
الْعُلُومِ بَيْنَ أُمَّمٍ قَدْ فَرَعَتْ مِنْ ضَرُورِيَّاتِهَا،
فَاشْتَغَلْتُمْ بِهَا مِثْلَهُمْ فِي أُمَّةٍ لَا يَزَالُ سَوَادُهَا الْأَعْظَمُ
فِي حَاجَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ حُرُوفِ الْهَجَاءِ.

وَرَأَيْتُمُ الْفَلَسَفَةَ فِيهَا يَنْشُرُونَ فِلْسَفَةَ الْكُفْرِ بَيْنَ

شُعوبٍ ملحدةٍ، لها مِنْ عَقُولِهَا وآدَابِهَا ما قد يُغْنِيهَا
بَعْضَ الغَنَاءِ عن إِيْمَانِهَا^(١)، فَاشْتَغَلْتُمْ بِنَشْرِهَا بَيْنَ
أُمَّةٍ ضَعِيفَةٍ سَادِجَةٍ لا يُغْنِيهَا عن إِيْمَانِهَا شَيْءٌ.

ورَأَيْتُمُ الرَّجُلَ الأوروْبِيَّ حُرًّا مُطْلَقًا يَفْعَلُ ما
يَشَاءُ وَيَعِيشُ كما يُرِيدُ لِأَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ
وخطواتِهِ في السَّاعَةِ الَّتِي يَعْلَمُ فِيهَا أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ إِلى
حُدُودِ الحُرِّيَّةِ الَّتِي رَسَمَهَا لِنَفْسِهِ فلا يَتَخَطَّأُهَا،
فَأَرَدْتُمْ أَنْ تَمْنَحُوا هَذِهِ الحُرِّيَّةَ نَفْسَهَا رَجُلًا ضَعِيفًا
الإِرَادَةَ والعَزِيمَةَ، يَعِيشُ مِنْ حَيَاتِهِ الأَدْبِيَّةِ على رَأْسِ
مُنْحَدَرٍ زَلِقٍ، فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ قَدَمُهُ مَرَّةً انْحَدَرَ مِنْ حَيْثُ
لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَمْسِكَ حَتَّى يَبْلُغَ الهُوَّةَ وَيَتَرَدَّى فِي
قَرَارَاتِهَا.

ورَأَيْتُمُ الزَّوْجَ الأوروْبِيَّ الَّذِي أَطْفَأَتِ البِيئَةُ
غَيْرَتَهُ وَأَزَالَتْ خُشُونَةَ نَفْسِهِ وَحُرْشَتِهَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى

(١) زعموا!!!

زَوْجَتَهُ تُخَاصِرُ مَنْ تَشَاءُ مِنَ الرِّجَالِ ، وَتُرَافِقُ مَنْ
تَشَاءُ ، وَتَخْلُو بِمَنْ تَشَاءُ ، فَيَقِفُ أَمَامَ ذَلِكَ الْمَشْهَدِ
مَوْقِفَ الْجَامِدِ الْمُتَبَلِّدِ ، فَأَرَدْتُمْ مِنَ الرَّجُلِ الشَّرْقِيِّ
الْغَيُورِ الْمُتَلَهَّبِ أَنْ يَقِفَ مَوْقِفَهُ ، وَيَسْتَمْسِكَ
اسْتِمْسَاكَهُ ! .

ورأيت المرأة الأوروبية الجريرة المفتية
تستطيع في بعض مواقفها بين الرجال أن تحتفظ
بعضمتها! فأردت من المرأة المصرية الضعيفة
الساذجة أن تبرز للرجال بروزها، وتحتفظ بنفسها
احتفاظها! .

وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه،
أو ساعة غير ساعته، إما أن تأباه الأرض فتلفه،
وإما أن ينشب فيها فيفسدها .

إِنَّا نَضْرَعُ إِلَيْكُمْ بِاسْمِ [خَالِقِ الْأَرْضِ
وَالسَّمَاءِ وَنَذْكُرْكُمْ] ^(١) بِالشَّرْفِ الْوَطْنِيِّ وَالْحُرْمَةِ

(١) ما بين معكوفتين زيادة لا بد منها في السياق: (من =

الدينية أَنْ تتركوا تلك البقية الباقية مِنْ نِسَاءِ الْأُمَّةِ
أَمِنَاتٍ مُطْمَئِنَّاتٍ فِي بُيُوتِهِنَّ، وَلَا تُزْعِجُوهُنَّ
بِأَحْلَامِكُمْ وَأَمَالِكُمْ كَمَا أزعجتُمْ مِنْ قَبْلَهُنَّ.

فكل جرحٍ من جروحِ الْأُمَّةِ له دَوَاءٌ إِلَّا جُرْحَ
الشَّرَفِ، فَلَا دَوَاءَ لَهُ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا!
فَانتظروا بِأَنْفُسِكُمْ قَلِيلاً رَيْثَمَا تَنْتَزِعُ الْأَيَّامُ مِنْ
صُدُورِكُمْ هَذِهِ الْغَيْرَةَ الَّتِي وَرِثْتُمُوهَا عَنْ آبَائِكُمْ
وَأَجْدَادِكُمْ لِتَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعِيشُوا فِي حَيَاتِكُمْ الْجَدِيدَةِ
سُعْدَاءَ آمِنِينَ.

فَمَا زَادَ الْفَتَى عَلَى أَنْ ابْتَسَمَ فِي وَجْهِهِ
ابْتِسَامَةَ الْهُزْءِ وَالسُّخْرِيَةِ، وَقَالَ: تِلْكَ حَمَاقَاتُ
مَا جِئْنَا إِلَّا لِمُعَالَجَتِهَا، فَلَنْصَطِرُ عَلَيْهَا حَتَّى يَقْضِيَ
اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا.

زيادات نسخة الأستاذ علي حسن عبد الحميد - جزاه
الله خيراً -).

فَقُلْتُ لَهُ : لَكَ أَمْرُكَ فِي نَفْسِكَ وَفِي أَهْلِكَ ،
فَاصْنَعْ بِهِمَا مَا تَشَاءُ وَائْذَنْ لِي أَنْ أَقُولَ لَكَ : إِنِّي
لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْتَلِفَ إِلَيْكَ (١) بَعْدَ الْيَوْمِ . إِبْقَاءَ عَلَيْكَ
وَعَلَى نَفْسِي لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يَنْفَرُجُ لِي
فِيهَا جَانِبُ سِتْرٍ مِنْ أَسْتَارِ بَيْتِكَ عَنْ وَجْهِ امْرَأَةٍ مِنْ
أَهْلِكَ تَقْتُلُنِي حَيَاءً وَخَجَلًا .

ثم انصرفت وكان هذا آخر ما بيني
وبينه .

وما هي إلا أيامٌ قلائلٌ حتى سمعتُ النَّاسَ
يتحدَّثونَ أَنَّ فُلَانًا هَتَكَ السَّتْرَ فِي مَنْزِلِهِ بَيْنَ نِسَائِهِ
وَأَصْدِقَائِهِ ، وَأَنَّ بَيْتَهُ قَدْ أَصْبَحَ مَغْشِيًّا لَا تَزَالُ النُّعَالُ
خَافِقَةً بِبَابِهِ .

فَذَرَفَتْ عَيْنِي دَمْعَةً لَا أَعْلَمُ : هَلْ هِيَ دَمْعَةٌ

(١) أي آتيك مرة بعد مرة .

الغيرة على العرض المذال، أو الحزن على
الصديق المفقود؟! .

مرّت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزورها
فيها ولا يزورني، ولا ألقاه في طريقه إلا قليلاً فأحبيه
تحيّة الغريب للغريب من حيث لا يجري لما كان
بيننا ذكرٌ ثم أنطلق في سبيلي .

فإني لعائدٌ إلى منزلي ليلة أمس، وقد مضى
الشطر الأول من الليل إذ رأيته خارجاً من منزله
يمشي مشية المضطرب الحائر، وبجانبه جندي من
جنود الشرطة، كأنما هو يحرسه أو يقتاده، فأهمني
أمره، ودنوت منه، فسألته عن شأنه؟ .

فقال: لا علم لي بشيءٍ سوى أن هذا
الجندي قد طرقت الساعة بابي يدعوني إلى مخفر
الشرطة، ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه
الساعة سبباً، وما أنا بالرجل المذنب ولا المريب،
فهل أستطيع أن أرجوك - يا صديقي القديم - بعد

الَّذِي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَنْ تَصْحَبَنِي اللَّيْلَةَ فِي وَجْهِي
هَذَا، عَلَنِي أَحْتَاجُ إِلَى مَعُونَتِكَ فِيمَا قَدْ يَعْرِضُ لِي
هُنَاكَ مِنَ الشُّؤُونِ؟ .

قُلْتُ: لَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ؟ .

وَمَشَيْتُ مَعَهُ صَامِتًا لَا أُحَدِّثُهُ، وَلَا يَقُولُ لِي
شَيْئًا، حَتَّى شَعَرْتُ كَأَنَّهُ يُزَوِّرُ^(١) فِي نَفْسِهِ كَلَامًا يُرِيدُ
أَنْ يُفْضِيَ بِهِ إِلَيَّ فَيَمْنَعُهُ الْخَجَلُ وَالْحَيَاءُ، فَفَاتَحْتُهُ
الْحَدِيثَ وَقُلْتُ لَهُ:

أَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَذَكَّرَ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ سَبِيًّا؟ .

فَنَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً حَائِرَةً وَقَالَ: إِنَّ أَحْوَفَ
مَا أَخَافُهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَدَثَ لِرِزْوَجَتِي اللَّيْلَةَ حَدِيثٌ
مُؤَلِّمٌ، فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهُالْم تَعُدُّ إِلَى مَنْزِلِهَا
حَتَّى السَّاعَةِ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ شَأْنَهَا مِنْ قَبْلُ! .

قُلْتُ: أَمَا كَانَ يَصْحَبُهَا أَحَدًا؟ .

(١) زَوَّرَ الْكَلَامَ فِي نَفْسِهِ: هَيَّأَهُ.

قال: لا .

قُلْتُ: أَلَا تَعْلَمُ الْمَكَانَ الَّذِي ذَهَبَتْ إِلَيْهِ؟ .

قال: لا .

قُلْتُ: وَمِمَّ تَخَافُ عَلَيْهَا؟ .

قال: لا أخاف شيئاً سِوَى أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّهَا امْرَأَةٌ غَيُورٌ حَمَقَاءُ، فَلَعَلَّ بَعْضَ النَّاسِ حَاوَلَ الْعَبَثَ بِهَا فِي طَرِيقِهَا فَشَرِسَتْ عَلَيْهِ فَوَقَعَتْ بَيْنَهُمَا وَاقِعَةٌ أَنْتَهَى حَدِيثُهَا إِلَى رِجَالِ الشَّرْطَةِ .

وَكُنَّا قَدْ وَصَلْنَا إِلَى الْمَخْفَرِ، فَاقْتَادَنَا الْجُنْدِيُّ إِلَى قَاعَةِ الْمَأْمُورِ، حَتَّى صَرْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَشَارَ إِلَى جُنْدِيٍّ أَمَامَهُ إِشَارَةً لَمْ نَفْهَمْهَا، ثُمَّ اسْتَدْنَى الْفَتَى إِلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: يَسُوؤُنِي يَا سَيِّدِي أَنْ أَقُولَ لَكَ: إِنَّ رِجَالَ الشَّرْطَةِ قَدْ عَثَرُوا اللَّيْلَةَ فِي مَكَانٍ مِنْ أَمْكِنَةِ الرَّبِيَّةِ عَلَى رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ فِي حَالٍ غَيْرِ صَالِحَةٍ فَاقْتَادُوهُمَا إِلَى الْمَخْفَرِ، فَزَعَمَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ لَهَا بِكَ

صِلَّةً، فَدَعَوْنَاكَ لِتَكْشِفَ لَنَا الْحَقِيقَةَ فِي أَمْرِهَا، وَأَمْرٍ
صَاحِبِهَا، فَإِنْ كَانَتْ صَادِقَةً أَذِنَّا لَهَا بِالْأَنْصِرَافِ
مَعَكَ: إِكْرَاماً لَكَ، وَإِبْقَاءً عَلَى شَرَفِكَ، وَإِلَّا فَهِيَ
أَمْرَةٌ فَاجِرَةٌ لَا نَجَاةَ لَهَا مِنْ عِقَابِ الْفَاجِرَاتِ،
وَهَا هُمَا وَرَاءَكَ فَانظُرْهُمَا.

وَكَانَ الْجُنْدِيُّ قَدْ جَاءَ بِهِمَا مِنْ عُرْفَةٍ أُخْرَى،
فَنَظَرَ، فَإِذَا الْمَرْأَةُ زَوْجَتُهُ، وَإِذَا الرَّجُلُ أَحَدُ
أَصْدِقَائِهِ.

فَصَرَخَ صَرْخَةً رَجَفَتْ لَهَا جَوَانِبُ الْمَخْفَرِ
وَمَلَّتْ نَوَافِذَهُ وَأَبْوَابَهُ عُيُوناً وَأَذَاناً، ثُمَّ سَقَطَ فِي
مَكَانِهِ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ.

فَأَشْرَتْ عَلَى الْمَأْمُورِ أَنْ يُرْسِلَ الْمَرْأَةَ إِلَى
مَنْزِلِ أَبِيهَا، فَفَعَلَ، وَأَطْلَقَ سَبِيلَ صَاحِبِهَا، ثُمَّ
حَمَلْنَا الْفَتَى فِي مَرْكَبَةٍ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَدَعَوْنَا الطَّبِيبَ،
فَقَرَّرَ أَنَّهُ مُصَابٌ بِحُمَى دِمَاجِيَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَلَبِثَ سَاهِراً

بجانبه بقيّة الليل يُعالجه، حتّى دنا الصُّبحُ،
فانصرفَ على أن يعودَ متى دَعَوْنَاهُ، وعهِدَ إليّ
بأمرِهِ، فَلَبِثْتُ بِجَانِبِهِ أُرْثِي لِحَالِهِ، وَأَنْتَظِرُ قَضَاءَ اللَّهِ
فِيهِ، حتّى رأيتُهُ يتحركُ في مَضْجَعِهِ، ثُمَّ فَتَحَ عَيْنَيْهِ،
فَرَأَنِي، فَلَبِثَ شَاخِصًا إِلَيَّ هُنَيْهَةً كَأَنَّمَا يَحَاوِلُ أَنْ
يَقُولَ لِي شَيْئًا، فَلَا يَسْتَطِيعُهُ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، وَقُلْتُ:

هَلْ مِنْ حَاجَةٍ يَا سَيِّدِي؟ .

فَأَجَابَ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ خَافِتٍ: حَاجَتِي أَنْ لَا
يَدْخُلَ عَلَيَّ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ.

قُلْتُ: لَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكَ إِلَّا مَنْ تُرِيدُ.

فَأَطْرَقَ هُنَيْهَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا عَيْنَاهُ مُبْتَلَّتَانِ
بِالدَّمْعِ.

فَقُلْتُ: مَا بُكَاءُكَ يَا سَيِّدِي؟ .

قَالَ: أَتَعْلَمُ أَيْنَ زَوْجَتِي الْآنَ؟ .

قُلْتُ: وَمَاذَا تُرِيدُ مِنْهَا؟ .

قال: لا شيء سِوَى أَنْ أَقُولَ لَهَا: إِنِّي عَفَوْتُ
عنها.

قلت: إِنَّهَا فِي بَيْتِ أَبِيهَا.

قال: وَارْحَمَتَاهُ لَهَا، وَلِأَبِيهَا، وَلِجَمِيعِ
قَوْمِهَا، فَلَقَدْ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلُوا بِي شُرَفَاءَ أَمْجَاداً،
فَأَلْبَسْتُهُمْ مَذْعَرَفُونِي ثَوْباً مِنَ الْعَارِ لَا تَبْلُوهُ الْأَيَّامُ.

مَنْ لِي بِمَنْ يُبَلِّغُهُمْ عَنِّي جَمِيعاً أَنِّي رَجُلٌ
مَرِيضٌ مُشْرِفٌ^(١)، وَأَنَّنِي أَخْشَى لِقَاءَ اللَّهِ إِنْ لَقِيْتُهُ
بِدِمَائِهِمْ، وَأَنَّنِي أَضْرَعُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَصْفَحُوا عَنِّي،
وَيَغْتَفِرُوا ذَنْبِي، قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ إِلَيَّ أَجْلِي.

لَقَدْ كُنْتُ أَقْسَمْتُ لِأَبِيهَا يَوْمَ اهْتَدَيْتُهَا^(٢)، أَنْ
أَصُونَ عَرَضَهَا صِيَانَتِي لِحَيَاتِي، وَأَنْ أَمْنَعَهَا مِمَّا أَمْنَعُ

(١) أي على الهلاك.

(٢) اهتدى الرجل امرأته جمعها إليه وضمها.

منه نفسي ، فَحَنَنْتُ فِي يَمِينِي فَهَلْ يَغْفِرُ لِي ذَنْبِي
فَيَغْفِرَ لِي اللَّهُ بِغُفْرَانِهِ؟! .

إِنَّهَا قَتَلْتَنِي ، وَلَكِنِّي أَنَا الَّذِي وَضَعْتُ فِي يَدِهَا
الْخِنْجَرَ الَّذِي أَغْمَدْتُهُ فِي صَدْرِي ، فَلَا يَسْأَلُهَا أَحَدٌ
عَنْ ذَنْبِي! .

الْبَيْتُ بَيْتِي ، وَالزَّوْجَةُ زَوْجَتِي ، وَالصَّدِيقُ
صَدِيقِي ، وَأَنَا الَّذِي فَتَحْتُ بَابَ بَيْتِي لِصَدِيقِي إِلَى
زَوْجَتِي ، فَلَمْ يُذْنِبْ إِلَيَّ أَحَدٌ سِوَايَ .

ثُمَّ أَمْسَكَ عَنِ الْكَلَامِ لِحِظَةً ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ ،
فَإِذَا سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ تَنْتَشِرُ فَوْقَ جَبِينِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى
لَبَسَتْ وَجْهَهُ ، فَزَفَرَ زَفْرَةً خِلْتُ أَنَّهَا خَرَقَتْ حِجَابَ
قَلْبِهِ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

أِهْ مَا أَشَدَّ الظَّلَامَ أَمَامَ عَيْنَيَّ ، وَمَا أَضْيَقَ الدُّنْيَا
فِي وَجْهِي ، فِي هَذِهِ العُرْفَةِ ، عَلَى هَذَا المَقْعَدِ ،
تَحْتَ هَذَا السَّقْفِ ، كُنْتُ أَرَاهُمَا جَالِسَيْنِ يَتَحَدَّثَانِ ،

فَتَمَتَّلَىٰ نَفْسِي غِبْطَةً وَسُرُورًا، وَأَحْمَدُ اللَّهَ عَلَىٰ أَنْ
رَزَقَنِي بِصَدِيقٍ وَفِي يُونُسَ زَوْجَتِي فِي وَحْدَتِهَا،
وَزَوْجَةٍ سَمَّحَةٍ كَرِيمَةٍ تُكْرِمُ صَدِيقِي فِي غَيْبَتِي،
فَقُولُوا لِلنَّاسِ جَمِيعًا: إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ
يَفْخَرُ بِالْأَمْسِ بِذَكَائِهِ وَفِطْنَتِهِ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ أَكْبَسُ النَّاسِ
وَأَحْزَمُهُمْ، قَدْ أَصْبَحَ يَعْتَرِفُ الْيَوْمَ أَنَّهُ أَبْلَهُ إِلَى الْغَايَةِ
مِنَ الْبَلَاهَةِ، وَعَبِيٌّ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي لَا غَايَةَ وَرَاءَهَا!
وَالهَفَاءُ عَلَى أُمَّ لَمْ تَلِدْنِي، وَأَبٍ عَاقِرٍ لَا نَصِيبَ
لَهُ فِي الْبَيْنِ (١)!

لَعَلَّ النَّاسَ كَانُوا يَعْلَمُونَ مِنْ أَمْرِي مَا كُنْتُ
أَجْهَلُ، وَلَعَلَّهُمْ كَانُوا إِذَا مَرَرْتُ بِهِمْ يَتَنَاطَرُونَ
وَيَتَغَامَزُونَ، وَيَبْتَسِمُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ أَوْ يُحَدِّقُونَ
إِلَيَّ وَيُطِيلُونَ النَّظَرَ فِي وَجْهِ لِي رَوَا كَيْفَ تَتَمَثَّلُ
الْبَلَاهَةُ فِي وُجُوهِ الْبُلْهَةِ، وَالْغَبَاوَةُ فِي وُجُوهِ الْأَغْبِيَاءِ.

(١) يريد: ليتني لم أولد.

ولعلّ الذين كانوا يُطيفون بي ، وَيَتَوَدَّدُونَ إِلَيَّ
مِنْ أَصْدِقَائِي إِنَّمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِهَا لَا مِنْ
أَجْلِي ، وَلَعَلَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَنِي فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
أَنْفُسِهِمْ قَوَادِمًا ، وَيُسَمُّونَ زَوْجَتِي مُومِسًا ، وَبَيْتِي
مَآخُورًا^(١) .

فَوَارْحَمَتَاهُ لِي إِنْ بَقِيَتْ عَلَيَّ ظَهْرُ الْأَرْضِ بَعْدَ
الْيَوْمِ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَوَالِهَفَاءً عَلَيَّ زَاوِيَةً مِنْ زَوَايَا قَبْرِ
عَمِيقٍ يَطْوِينِي وَيَطْوِي عَارِيَّ مَعِي .

ثُمَّ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَعَادَ إِلَى ذُحُولِهِ وَاسْتِغْرَاقِهِ .

وَهُنَا : دَخَلَتِ الْحَجْرَةَ مُرْضِعٌ وَلَدِهِ تَحْمَلُهُ
عَلَى يَدَيْهَا ، حَتَّى دَنَّتْ بِهِ مِنْ فِرَاشِهِ ، فَتَرَكَتُهُ
وَأَنْصَرَفَتْ .

فَمَا زَالَ الطُّفْلُ يَدُبُّ عَلَيَّ يَدَيْهِ حَتَّى عَلَا صَدْرَ
أَبِيهِ ، فَأَحَسَّ بِهِ فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ ، فَرَأَاهُ ، فَابْتَسَمَ لِمَرَّاهُ ،

(٢) الماخور: بيت الريبة .

وَضَمَّهُ إِلَيْهِ ضَمَّةَ الرَّفْقِ وَالْحَنَانِ، وَأَدْنَى فَمَهُ مِنْ
 وَجْهِهِ كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يُقَبِّلَهُ، ثُمَّ انْتَفَضَ فَجَاءَهُ،
 وَاسْتَسْرَّ (١) بِشْرَهُ (٢)، وَدَفَعَهُ عَنْهُ بِيَدِهِ دَفْعاً شَدِيداً
 فَأَنْكَفَأَ عَلَى وَجْهِهِ يَبْكِي وَيَصِيحُ. وَقَالَ: أَبْعِدُوهُ
 عَنِّي، لَا أَعْرِفُهُ، لَيْسَ لِي أَوْلَادٌ وَلَا نِسَاءً، سَلُوا أُمَّهُ
 عَنْ أَبِيهِ! أَيْنَ مَكَانُهُ؟ وَادْهَبُوا بِهِ إِلَيْهِ، لَا أَلْبَسُ الْعَارَ
 فِي حَيَاتِي وَأَتْرُكُهُ أَثْراً خَالِداً وَرَائِي بَعْدَ مَمَاتِي.

وَكَانَتْ الْمَرْضَعُ قَدْ سَمِعَتْ صِيَاخَ الطِّفْلِ
 فَعَادَتْ إِلَيْهِ وَحَمَلَتْهُ وَذَهَبَتْ بِهِ.

فَسَمِعَ صَوْتَهُ وَهُوَ يَتَعَدُّ عَنْهُ شَيْئاً فَشَيْئاً،
 فَأَنْصَتَ إِلَيْهِ وَاسْتَعْبَرَ بَاكِياً، وَصَاحَ:
 أَرْجِعْهُ إِلَيَّ.

فَعَادَتْ بِهِ الْمَرْضَعُ، فَتَنَاوَلَهُ مِنْ يَدَيْهَا وَأَنْشَأَ

(١) اختفى وغاب.

(٢) فرحه وسروره.

يُقَلِّبُ نَظْرَهُ فِي وَجْهِهِ وَيَقُولُ :

فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَا بُنَيَّ مَا خَلَّفَ لَكَ أَبُوكَ مِنْ
الْيَتِيمِ ، وَمَا خَلَّفَتْ لَكَ أُمُّكَ مِنَ الْعَارِ ، فَاغْفِرْ لَهُمَا
ذَنْبَهُمَا إِلَيْكَ ، فَلَقَدْ كَانَتْ أُمُّكَ امْرَأَةً ضَعِيفَةً فَعَجَزَتْ
عَنِ احْتِمَالِ صَدْمَةِ الْقَضَاءِ فَسَقَطَتْ ، وَكَانَ أَبُوكَ
حَسَنَ النِّيَّةِ فِي جَرِيمَتِهِ الَّتِي اجْتَرَمَهَا ، فَأَسَاءَ مِنْ
حَيْثُ أَرَادَ الْإِحْسَانَ .

سَوَاءٌ أَكُنْتَ وَوَلَدِي يَا بُنَيَّ أَوْ وَوَلَدِ الْجَرِيمَةِ ،
فَإِنِّي قَدْ سَعِدْتُ بِكَ بَرَهَةً مِنَ الدَّهْرِ ، فَلَا أَنْسَى يَدَكَ
عِنْدِي حَيًّا أَوْ مَيِّتًا ! .

ثُمَّ احْتَضَنَهُ إِلَيْهِ وَقَبَّلَهُ فِي جَبِينِهِ قُبْلَةً ،
لَا أَعْلَمُ : هَلْ هِيَ قُبْلَةُ الْأَبِ الرَّحِيمِ ، أَوْ الرَّجُلِ
الْكَرِيمِ ! .

وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مِنْهُ الْجَهْدُ ، فَعَاوَدَتْهُ الْحُمَى ،
وَوَغَلَتْ نَارُهَا فِي رَأْسِهِ ، وَمَا زَالَ يَثْقُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى

خَفْتُ عَلَيْهِ التَّلْفَ، فَأَرْسَلْتُ وَرَاءَ الطَّبِيبِ، فَجَاءَ
وَأَلْقَى عَلَيْهِ نَظْرَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ اسْتَرَدَّهَا مَمْلُوءَةً يَأْسًا
وَحُزْنًا.

ثم بدأ ينزع نزعاً شديداً ويئنُّ أليناً مؤلماً، فلم
تبقَ عينٌ من العيون المحيطة به إلا أرفضت عن كلِّ
ما تستطيع أن تجود به من مدامعها.

فإنَّا لجلوس حوله، وقد بدأ الموت يسيلُ
أستاره السوداء حول سريريه، وإذا بامرأةٍ متزرةٍ بإزارٍ
أسودٍ قد دخلت الحجره وتقدمت نحوه يبسطه حتى
ركعت بجانبه، ثم أكبت على يده الممتدة فوق
صدره فقبلتها، وأخذت تقول له:

لا تخرج من الدنيا وأنت مرتابٌ في ولدك،
فإن أمه تعترف بين يديك، وأنت ذاهبٌ إلى ربك
تسأله عن قولها أنها وإن كانت دنت من الجريمة
فإنها لم ترتكبها، فأعف عني يا والدٍ ولدي، وأسأل

اللَّهُ عِنْدَمَا تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ أَنْ يَلْحِقَنِي بِكَ فَلَا خَيْرَ لِي
فِي الْحَيَاةِ مِنْ بَعْدِكَ . .

ثُمَّ انْفَجَرَتْ بَاكِئَةً، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ، وَأَلْقَى عَلَيَّ
وَجْهَهَا نَظْرَةً بِاسْمَةٍ كَانَتْ هِيَ آخِرَ عَهْدِهِ بِالْحَيَاةِ،
وَقَضَى .

* * *

الآن عُدْتُ مِنَ الْمَقْبَرَةِ بَعْدَمَا دَفَنْتُ صَدِيقِي
بِيَدِي، وَأَوْدَعْتُ حُفْرَةَ الْقَبْرِ ذَلِكَ الشَّبَابَ النَّاصِرَ،
وَالرُّوْضَ الزَّاهِرَ.

وَجَلَسْتُ لِكِتَابَةِ هَذِهِ السُّطُورِ، وَأَنَا لَا أَكَادُ
أَمْلِكُ مَدَامِعِي وَزَفْرَاتِي، فَلَا يَهْوَنُ وَجْدِي عَلَيْهِ إِلَّا
أَنَّ الْأُمَّةَ كَانَتْ عَلَى بَابِ خَطَرٍ مِنْ أخطَارِهَا فَتَقَدَّمَ هُوَ
أَمَامَهَا إِلَى ذَلِكَ الْخَطَرِ وَحْدَهُ، فَاقْتَحَمَهُ، فَمَاتَ
شَهِيداً بَيْنَ يَدَيْهَا، فَفَجَتْ بِهِ لَاحِكِهِ .

[تَمَّتْ]